في الدعوة والحركة

حول مفهوم الحيطة والحذر في الإسلام -٣- *

الأخ ح. زين العابدين

نحاول في هذه الحلقة الأخيرة من الموضوع أن نتطرق إلى بعض الأمثلة العملية حول ما عنيناه في الحلقتين السابقتين من ضرورة تصحيح مفهوم الحيطة والحذر بما يتفق والإسلام ويرضي الله عزَّ وجلّ

المثال الأوّل :

يوجد لقاء دوري في أحد المساجد بأحد البلاد الإسلاميّة ، يحتوي على قراءة القرآن الكريم والتفسير والفقه والحديث وربّما دروس من السيرة النبوية ، ويتضمّن وعظ الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح ، ونفترض فيه أيضاً العمل الإيجابي السليم المبنيّ على تربية الأفراد وتوعيتهم مع عدم التهوّر أو الإفراط فيما قد يؤدّي إلى إيقاف مثل هذه الجلسات الطيبة قبل أن تؤتي ثمارها .. ثمّ تقع محنة من المحن ، ويُشَدَّد على الوعّاظ والداعين إلى الله ، فيخشى القائمون على هذا العمل الطيب من مغبّة استمرارهم عليه فيحتاطون لأنفسهم ويوقفون هذا اللقاء على أساس من التوهّم ، وزيادة في الحذر في أغلب الحالات ، ويكون نتيجة ذلك أن ينعدم الوعظ والإرشاد والتذكير بالله في بلاد بأكملها ؛ وتسمع أحد الدعاة إلى الله يمتنع عن التذكير بجلسة قرآنية أو عن إدارتها في مسجد من المساجد بحجة أنّه يخشى أن يُسأَل أو يُستجوب أو تقع له مضايقات ، وماذا على الإنسان المسلم المؤمن الداعية لو غبَّر وجهه في سبيل الله .. لو امتهن أو غمز أو لمز في سبيل الله ، كما فُعل برسول الله ﷺ وصحبه الأجلاّء ، قدوتنا الحسنة في تطبيق الإسلام ؟ .. ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآَخِرِ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ٢١]

يذكر ابن هشام في سيرته (ص ٣٠٨ من الجزء الثاني) في ذكر ما الاقتصادي رسول الله ﷺ من قومه : (ثمّ أنّ قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم فكذبوه وآذوْه ورموْه بالشعر والكهانة والجنون والسحر ورسول الله ﷺ مظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به مبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إيّاهم على كفرهم) ويقول الذي ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممّن أسلم بالأذى والفتنة : (ثمّ إنّهم عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبت كلّ قبيلة على من فيه من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكّة إذا اشتدّ الحرّ يفتنونهم عن دينهم) -سيرة ابن هشام الجزء الثاني ص ٣٣٩-

والسيرة النبوية مليئة بالأمثلة الحيّة لما كانوا رضوان الله عليهم يلاقونه في سبيل الله صابرين محتسبين ليس لهم على ذلك جزاء سوى الجنّة

فالحذر والحيطة والخوف من استمرار عمل إسلامي إيجابي تربوي فيه ذكر لله وتذكير للناس وتبيان للدين الـــذي جاء به رسول الله ﷺ في مسجد من مساجد الله وبيت من بيوته .. لا معنى لها ، بل إنّ هذا مفهوم خاطئ لمعناهـــا ، ولو أدّى الأمر إلى أن يُستجوب الإنسان أو يسجن أو يعذّب ، لأنّه إنّما قام بعمل شرعي ، وعمل ضروري ، وعمل متزن .. وتوقُف مثل هذا الوعظ الجادّ المرتبط بالحياة وواقع المسلمين ، الوعظ المتميّز الذي لا يرتبط بمنفعة ولا يقـــع تحت سلطة .. كارثةٌ على المسلمين وقعودٌ عن واجب وفرض إسلامي يأثمون بسببه ، أمّا إذا أجبر المـــسلم والمـــؤمن بالقوة على أن لا يمارس هذه الدعوة إلى الله فيكون بذلك قد أعذر إلى الله ﷻ وله بعد ذلك أن يشقّ كـــلّ طريـــق ويبحث عن كلّ وسيلة تمكّنه من تبليغ دين الله كما أنزله الله

المثال الثاني :

يحدث عادة أن يتعرّض الأفراد أو الجماعات الإسلاميّة أثناء أدائهم لواجبٍ إسلامي ما إلى غدر أو خيانـــة مـــن داخل الصفّ أو خارجه يودي بحياة الكثيرين أو يوقعهم في فتن ومشكلات ويدخلهم السجون ، فينتج عـــن ذلـــك القعود عن الواجبات والانكماش والتقوقع بحجة الحذر والحيطة ومواجهة الظروف .. ولقد حدثت على عهد رسول الله ﷺ حادثتان متشابهتان أثناء رغبة صحابته رضوان الله عليهم القيام بواجب تبليغ دعوة الله إلى النـــاس ؛ الحادثـــة الأولى في أواخر السنة الثالثة للهجرة وهي ما يسمّى بيوم الرجيع عندما قدم على رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد رهطٌ من عضل والقارة فقالوا : يا رسول الله إنّ فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الـــدين ويقرئوننـــا القرآن ، فبعث رسول الله ﷺ وفي رواية عشرة من أصحابه ﷺ حتى إذا كانوا على الرجيع –مـــاء لهـــذيل بناحيـــة الحجاز– غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا .. إلى آخر القصة المروية في سيرة ابن هشام الجزء الثالث ص ١٧٨ .. والتي تذكر كيف عُذّب الصحابة رضوان الله عليهم وكيف قتلوا عن آخرهم

والحادثة الثانية هي حادثة بئر معونة التي وقعت في أوائل السنة الرابعة للهجرة أي بعد الحادثة الأولى بما لا يزيـــد على ثلاثة أشهر تقريباً ، أرسل فيها رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ، بناءً على اقتراح من عامر بن مالك بن جعفر لدعوة أهل نجد إلى الإسلام ، وتعهدِه لرسول الله ﷺ بأن يضمن لهـــم الجوار .. ولكن عامراً بن الطفيل عدوّ الله استصرخ عليهم قبائل من بني سليم فأجابوه وقاتلوا القوم حتى قتلوا عـــن آخرهم رحمهم الله وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء –سيرة ابن هشام الجزء الثالث ص ١٩٤–

هكذا تعلّمنا سيرة رسول الله ﷺ وصحبه الكرام ، وهكذا ترشدنا ، ولو أنّ مثل هذا الأمر أو ما يشابهه حدث في عصرنا الحاضر لاحتاج المسلمون إلى قرون وقرون كي يخرجوا من عقدته وكي يتغلّبوا على الخوف الناشـــئ عنـــه ،

وكي يتخلّصوا ممّا يصاحب ذلك عادة من ثبوط ووهن وضعف ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۞ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٦-١٤٨]

لم يتأخر الصحابة رضوان الله عليهم عن تبليغ دعوة الله وركبوا المخاطر وامتطوا الصعاب ، لم تقف البعوث و لم تتأخر الغزوات ، و لم تُلْغَ السرايا ، بل ازدادت واتجهت في كلّ صوب مبلّغةً لدين الله وناشرةً لشرعه في كافة أرجاء المعمورة ، رغم ما صادفته في سبيل الله من غدر أحياناً أن ومن هزائم أحياناً أخرى ، ومن تعذيب وتنكيل في فترات متعاقبة .. لقد وصل الحال بالمسلمين وفي أوقات كثيرة ببعض الدعاة إلى الله ، أن يقولوا بقول المنافقين : لو أنّنا أخذنا الحذر الكافي ولو احتطنا لأمرنا لما حدث كذا وكذا .. وقد قال بعض المنافقين يوم الرجيع : (يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم) -سيرة ابن هشام الجزء الثالث ص ١٨٣-

إنّهم يتكلّمون اليوم بنفس الأسلوب ، لقد خسرنا هذا الرجل ، ولقد ضاعت الجماعة ، فلا هي وصلت إلى مـــا تصبو إليه ولا هي استعدت وحفظت أفرادها من الهلاك والضياع والله ﷻ يقول :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُـــزًّى لَـــوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [آل عمران : ١٥٦] فالحذر والحيطة لا يدفعان قضاء الله وقدره ، وكما قال الشاعر :

حذراً أموراً لا تخاف ، وآمـــن	**ما ليس منجيـــه مـــن الأقـــدار**

لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم وخلَفهم الصالح يعتبرون الاستشهاد فوزاً والسجن اعتكافاً والنفي سياحة في سبيل الله .. وفي حادثة بئر معونة يروي ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق في سبب إسلام جبار بن سلمى وكـــان ممّن شارك في قتل المسلمين في تلك الحادثة قبل إسلامه .. كان جبار يقول : (إنّ ممّا دعاني إلى الإسلام أنّي طعنـــت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فـــزت والله ! فقلت في نفسي : ما فاز ! ألست قد قتلت الرجل ؟ .. قال : حتى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : للـــشهادة ، فقلت فاز لعمرُ الله)

على أنّنا نعود فنؤكّد في نهاية هذا المقال على ضرورة الحذر والحيطة اللذين يجنّبان الحركة الإسلاميّة في العـــصر الحديث استدراجها إلى معارك جانبية ، أو تخطّيها للمراحل الضرورية ، وذلك بتوعيتـــها لعناصـــرها ، باختيارهـــا الشخص المناسب للمكان المناسب ، باتخاذها الوسائل الضرورية لحماية أفرادها ، وبتفاعلها مع الظـــروف والوقـــائع

المستجدّة

وقد ورد في لسان العرب في معاني الحذر أنّه الاستعداد والتيقظ والتأهّب وإعداد العدّة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** ﴾ [الشعراء : ٥٦] .. أي مستعدون ، قال الزجاج : الحاذر المستعد ، والحذر التـيقّظ . وورد في لسان العرب أيضاً : الحيطة الاحتياط وهي بمعنى صان الشيء وكلأه ورعاه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ... **إِلاَّ أَنْ يُحَـاطَ بِكُمْ** ... ﴾ [يوسف : ٦٦] .. أي تؤخذوا من جوانبكم على حين غرة ، وكلّ من أحرز شيئاً كلّه وبلغ علمه أقصاه فقد أحاط به ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ... **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ... ﴾ [النمل : ٢٢] .. أي علمته من جميع جهاته ، وفي الحديث : أحطت به علماً أي أحدق علمي به من جميع جهاته وعرفه ، انتهى . وعلى هـذا يكـون المفهـوم الصحيح لمعنى الحذر والحيطة في الإسلام هو الاستعداد الكامل والتأهّب الوافي والتيقّظ الشديد والإحاطة الشاملة بكلّ الأمور التي تدور حول المسلمين والدعاة درايةً ومعرفةً وعمقاً يجنّبهم بما في مقدور البشر أن يؤخذوا على غـرة مـن أمرهم ، أو أن يُفاجؤوا بما لم يتوقعوا ، أو أن يُستدرَجوا إلى ما لا يريدون ، أو يُستغلّوا فيمـا لا يهـدفون إليـه .. وليست الحيطة والحذر بمعنى الخوف الكبير والفزع الشديد والهلع المميت ، الذي يعوق كلّ انطلاقة ، ويُقعِد عن كلّ جهاد ، ويهدر كلّ طاقة ، ويفني كلّ جهد ، ويعرقل كلّ عمل ، ويميت كلّ قلب ، ويدفن كلّ عاطفة .. يقول الله ﷻ في وصف الخوف الممقوت :

﴿ **قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَـوْفُ سَـلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** ﴾ [الأحزاب : ١٨-١٩]

نسأل الله الكريم أن يلهمنا الرشد ويهدينا الطريق المستقيم ويثبّتنا على الحق ويقينا شرور الأعداء ويوفقنا لما يحبّـه ويرضاه إنّه سميع قريب مجيب الدعوات والله الموفق.

---

* نشرت الحلقة الأولى في العدد ٤٢ والحلقة الثانية في العدد ٤٤ من مجلة الرائد